ولا يوجد الا القليل من الشك حول اعتلاء التتري العرش وأنه تمتع حلال عام بالسلطة الأوتوقراطية الصورية . فكان يتلقى العرائض كلها ويوقع الوثائق كلها باسمه الشخصي وبخاتمه الشخصي . « باسمه في جميع المحاكم كانوا يتقاضون ، وباسمه صكت النقود وجبيت العائدات الجمركية وفرضت بشكل عرضي بعض الغرامات والضرائب » كما كتب أحد المعاصرين . وبما انه قيصر كان يستقبل المتروبوليت والأساقفة والنبلاء وسفراء الدول الأجنبية أيضا وإن كان بعض السفراء والمعتمدين الأجانب قد رفضوا التعامل إلا مع إيڤان نفسه . وعندما قاموا يبحثون عنه اكتشفوه مرتديا بزة بورجوازية ورفض ان ينادوه بلقب الجلالة ، وكان اندهاشهم كبيرا عندما وجدوه على هذا الحال . وكان إيڤان قد سحب مرة أخرى وبسرعة كبيرة الامتيازات التي كان قد منحها للتجار الانكليز وفرض عليهم غرامات ورسوم غير محتملة . وغدا مع تقدمه في السن شديد البخل . فعندما كان يأمر بقتل عائلة بكاملها كان يصادر في العادة ثروتها ، وهو ليس في منجى عن الاتهام بأنه قتل بعض الناس لغاية واحدة هي الاستيلاءعلى ثروتهم . كان دائما يعبىء براميل بالذهب، ولا ينظر بعين الارتياح للتجار الأجانب وهم يشحنون المال ويخرجون به من البلاد . وربما كان قد أستخدم سيميون قيصرا ما بين عام ١٥٧٥ — ٧٦ ليقوم باعتصارهم اكثر واكثر .

على اننا لا نستطيع اكثر من أن نقدم فرضيات عن حالته العقلية خلال السنة التي تخلى بها عن العرش . فكل ما تتضمنه الوثائق الروسية قد دمر في الحريق الذي اصاب موسكو عام ١٦٢٦ . ونحن نميل الى التفكير بأن هذا التنازل إنما كان يعبر عن مرحلة دورية من مراحل التدين الذي كان ينتاب القيصر . حقا إنه لم يعط لتصرفه اي تفسير ولكنه قال : « إ ننى اتخلى عن ازمة الحكم واضعها بين يدي رجل غريب بسبب ما يقوم به رعاياي من اعمال ضالة فاسدة » . وعندما استعمل الحجة نفسها في كانون الأول ديسمبر من عام ١٥٦٤ كان يقوم بمحاولة للتخلي عن العرش عندما غادر موسكو والتجأ الى